(c) www.nidaulhind.com

سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي و تطور اللغة العربية و آدابها و إعداد المقررات الدراسية في الهند

بقلم : الدكتور محمد اجتباء الندوي

إن الحياة متطورة متغيرة كما تتغير الطبائع والأزمان . ولا يعتور على الحياة والطبيعة والزمان فحسب ، بل ينتاب العلم والأدب والثقافة والحضارة حتى القانون والشريعة . فلا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان . نشاهد نحن سكان الأرض تطوراً في كل صباح ومساء . ونواجه تغيراً كل ليلة ونهار ، وتلك سنة الله ، ولا تجد لسنة الله تبديلاً . والتطور هو الذي جاء بألوان من الحياة الإنسانية منذ أن هبط الإنسان على هذه البسيطة إلى أن غا وترعرع ونهض وتقدم ، فنشأت مجتمعات إنسانية ذات علم وفن وأدب وثقافة وحضارة ومدنية ، تمتع فيها بنو آدم وصنعوا وبنوا وشيدوا صروحاً شامخةً في كل عصر ومصر ، وفي كل زمان ومكان ، وهذه هي طبيعة البشر وفلسفة الحياة ، وأما نحن طلاب اللغة العربية وآدابها نمر ببدو اللغة إلى عصرنا هذا بتطورات لغوية وأدبية ، وتاريخية نقدية دراسية من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث والمعاصر ، وهذه هي سنة الله أيضاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

لست أريد هنا أن أحكي لكم قصة اللغة العربية عبر التاريخ فلها مجال آخر ، ولكنني لابد لي من وقفة قصيرة عند اللغة العربية وآدابها التي جلبت موارد عذبة غنية ، ومناهل صافية ترية سقت وروت روافد من

(c) www.nidaulhind.com

العصر الأول إلى أن امتزجت بها مياه أعجمية كدرة أو لوثة الصناعة والتكلف والوشي والتطريز الوسخة ، فقد كان أدباً طبيعياً جميلاً تحلت به الكتب والرسائل لأساطين العلم والأدب تشهد بعبقرية اللغة العربية وعالميتها ، وقد أشار إليها رائد الأدب العربي في العصر الحديث بالهند الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله ، فيقول :

"إن هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة وطويلة وكلها أمثلة جميلة للغة العرب العرباء التي كانوا يتكلمون بها ، ويعبرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم ، و يجد دارس الأدب العربي فيها من البلاغة العربية ، والقدرة البيانية والوصف الدقيق ، والتعبير الرقيق ، وعدم التكلف والصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرواة بالبلاغة والتحري في صحة النقل والرواية وللغة العربية بالسعة والجمال" . [مقدمة مختارات : ص/٨]

ولكن الأدب العربي كما ذكرنا أصيب بلوثة أعجمية أذهبت رواءه وبهاءه و قيدته بسلاسل وأغلال أفقدت حريته و انطلاقه و خفة روحه وجماله ، وذلك بنبوغ أدباء وكتاب تربعوا على عرش الأدب العربي أمثال أبي إسحاق الصابي ، وابن العميد والصاحب ابن عباد والخوارزمي ، والهمداني ، والمعري ، فاخترعوا أسلوباً للكتابة اختلف عما سبقهم ، كانت الصناعة والسجع والبديع يغلب عليهم ، وجاء بعدهم أبو القاسم الحريري بمقاماته بنفس الأسلوب المسجع بل غلا فيه وتلاعب بالألفاظ المنمقة ، والكلمات المطرزة ، وسار القاضي الفاضل على هذا الدرب ، ونهج هذا المنهج الذي ورثه من الهمداني والحريري ، وكانت له دولة وصولة فسيطر على الأوساط الأدبية ، وتحكم على هذا الأسلوب الكتابي الفريد ، فقلده الأدباء والكتاب الذين خلفوهم فانشغلوا به ، فأصيبوا وأصيبت اللغة العربية بالجمود والعقم إلى أن أمسك زمام الكتابة في اللغة العربية بالبلاد العربية ابن خلدون ، وفي شبه القارة الهندية الإمام ولي الله الدهلوي رحمهما

(c) www.nidaulhind.com

الله تعالى ، واختارا أسلوباً طبيعياً متدفقاً بالحياة والقوة والجمال ، أولهما في المقدمة ، وثانيهما في حجة الله البالغة ، فانتعش الأدب ونما وترعرع ، وبرز في العصر الحديث يستعيد قيمته ومكانته وحيويته ونشاطه ، ولكن المعاهد والمدارس كانت لا تزال تتشبث بذلك المنهج والمقرر الدراسي القديم الذي لم يكن يستغني عن الحريري ومقاماته ، وزاد الطين بلة حينما ألف أديب هندي كتاباً لتعليم اللغة العربية لواحد من سادته الإنجليز "نفحة اليمن" . قلم يكن الكتاب إلا دمية يلهو بها طالب ومدرس أو لعبة يتسلى بها دارس في أوقات الفراغ والتسلية ، ولم ينتبه إلى وضع منهج جديد في ضوء أدب الإمام الدهلوي ، وأولئك الذين كانوا يحمدون فعلته ويعتبرون أنفسهم تلامذته ، بل إنهم غضوا النظر عن تلك الثروة الأدبية الزاخرة ، ولم يستعيدوا ولم يكونوا يتعلمون إلا نادراً كما أشار إليه العلامة الشيخ عبد الحي الحسني رحمه الله تعالى في رسالته : "المقررات الدراسية لمدارس الهند وتطوراتها" ، وتأسف على هذا الموقف المؤلم الشيخ الندوي رحمه الله تعالى ، وقال : "وقد جنى هذا الإهمال على اللغة والأدب وعلى الكتابة والإنشاء وعلى التأليف والتصنيف وعلى التفكير ، فقد حرمه مادة غزيرة من التعبير وباعثاً قوياً للتفكير" .

[مقدمة مختارات : ص/١٧]

وحقاً أدى بدراستي هذا المنهج إلى أنهم لم يكونوا يقدرون على إبداء ما يجيش في صدورهم من خواطر وأفكار في هذه اللغة الكريمة ، وقد قال عنهم أحد كبار العلماء الهنود : بأنهم يعرفون عن اللغة العربية كثيراً ، ولا يعرفون اللغة العربية !!

لأجل هذا جعل الدعاة والمؤسسون لحركة ندوة العلماء بالهند من أهدافها الأساسية تعليم اللغة العربية كلغة حية متدفقة بالحيوية وخصوبة الفكر وزاخرة بالأدب الرفيع والثقافة العالية ، وعنوا بها كثيراً ، ولكن مضت فترة لم تتهيأ لهم مقررات ومناهج مجدية ومستقلة مع إنشاء دار

(c) www.nidaulhind.com

العلوم كنموذج مثالي لها ، ولما تسلم رئاسة ندوة العلماء الدكتور عبد العلي الحسني رحمه الله تعالى ، وكان قد نهل من المناهل القديمة والحديثة ، وعرف مطالب العصر وحاجاته ، وأيقن بأن اللغة العربية هي لغة المستقبل ، فلابد من العناية بها وإتقانها ونيل القدرة التعبيرية فيها كتابة وحديثاً ، وقد كان العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى يشعر بمثل ما يشعر ويقدر فوافق هوى في نفوس هؤلاء القائمين بإنعاش الروح العلمية والأدبية في حرم دار العلوم ، فاهتموا بها وحالفهم الحظ بأن انتخب من بين الأساتذة الأكفاء سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي مدرساً للتفسير والأدب العربي ، وكان قد قرأ على أستاذين عربيين ، هما : الشيخ خليل اليماني ، والدكتور تقي الدين الهلالي ، نال منهما التذوق الأدبي والقدرة البيانية والتعبيرية في اللغة ، وكان قد ورث من آبائه التعبير بواسطة اللغة والأدب ، وإعداد الجيل الناشئ للمكارم والمآثر والآداب الزكية الطاهرة والأخلاق النبيلة ، فألقى نظرة على المناهج والكتب الدراسية العربية والمصرية ، وكانت جيدة ، ولكنها كانت تلقي أضواء على الظروف والأوضاع والأوساط التي ألفت فيها هذه الكتب ، فلم تكن تفي بحاجة الطلبة الهنود ، ولم تكن تسترعي انتباههم لأنها لم تكن أليفة ومعروفة لديهم ، والإنسان بطبعه مجبول على ما يشعر ويرى ويشاهد ، فعقد العزم على تطوير اللغة والأدب العربي ، وإعداد منهج أدبي مفيد للطلبة الكبار والصغار نظراً لما كانت حركة ندوة العلماء ترى وتحلم به ، وتحدث عن ذلك الشيخ الندوي رحمه الله تعالى ، فيقول :

"وكانت ترى (ندوة العلماء) إلى تعليم اللغة العربية كلغة حية نابضة يخاطب بها العرب أنفسهم ، وتكون وسيلة الدعوة الإسلامية فيهم ، وتنشأ بها في طلاب المدارس العربية وخريجيها ملكة الخطابة والإنشاء والتحرير ، و قد أنشأت هذه الحركة لأجل هذا الغرض و لتحقيق هذه المشاريع

(c) www.nidaulhind.com

والخطط ، و عـرض نموذج حـي لذلك أمام المـدارس الإسـلامية في الهنـد ، دار العلـوم المركزية التابعة لها في لكنـاؤ عـام ١٣١٢هـ ، باسـم دار العلـوم ندوة العلماء" .

(في مسيرة الحياة : ج/١ ، ص/٣٩-٤٠)

وبما أن سماحة الشيخ رحمـه الله تعـالى كـان يـدرس الأدب العربـي ، فبـدأ بـإعداد مجموعـة مـن النثر مـن العصـر الإسـلامي الأول إلى العصـر الحديث في جزئين اثنين باسم : "مختارات من أدب العـرب" تلقاه النـاس بالقبول ، وحظي بانتخابه في المقررات الدراسية في بلادنا والبـلاد العربيـة ، وبلاد الشام بخاصة ، كما حكي عنه أديب العربية الكبير والمفكر الإسلامي العظيم الأستاذ علي الطنطاوي ، فيقول : "إذا كان الدليل على ذوق الأديـب اختيـاره ، فحسـب القـراء أن يعلمـوا أننـا عرضنـا مـن أمـد قريـب كتـب المختارات الأدبية لنتخير واحـداً منهـا نضعـه بـين أيـدي تلاميـذ الثانويـات الشرعية فـي الشام ، وذهـب كـل واحـد مـن أعضـاء اللجنـة - وكلهـم مـن الأدباء - يبحث ويفتش ، فعدنا جميعاً ، وقد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية ، وأجمعهـا بفنـون القـول وألـوان البيـان ، مختـارات أبـي الحسـن (مقدمة المسلمون في الهند)" ، ولما طبع الكتاب في دمشق عـام ١٩٥٧م أخـذ كاتب هذه الأسطر نسخة منه ، وقدمه إلى علامة الشام ، والعضو المؤسـس للمجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) ، وأستاذ الأدب وعلوم القرآن في الجامعة السورية (جامعة دمشق) ، فضيلة الشـيخ محمـد بهجـة البيطـار رحمه الله تعالى ، فبـدأ يقلـب الصفحـات ويهـتز ويطـرب ويثـني علـى جـودة الاختيار ، وحسـن التـذوق الأدبـي للمؤلـف ، وكـان هـذا الكتـاب ومقدمتـه البذرة الأولى للدعوة إلى حركـة الأدب الإسـلامي ، ثـم تلتـه مقالـة لسـماحة الشيخ الندوي ، نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق بعد انتخابه عضواً فيه بعنوان : "المكتبة العربية في حاجة إلى بحث وغربلة جديدة" .

تبلورت إلى فكرة تأسيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية عام ١٩٨٠م

(c) www.abulhasanalinadwi.com

بدعوة من سعادة الدكتور عبد الرحمن رأفت باشا رحمه الله تعالى في منزله بالرياض ، وقد ضم المجلس سعادة الدكتور عبد القدوس أبو صالح حفظه الله تعالى ، نائب رئيس الرابطة في البلاد العربية ، والدكتور عبد الباسط بدر ، الأمين العام للرابطة ، والدكتور أحمد البراء الأميري ، وكاتب هذه الأسطر ، وتقرر بأن يلتمس من سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي لقبول رئاسة رابطة الأدب الإسلامي ، وكلف هذا العاجز بالمراسلة إليه للموافقة ، وقد عقد مؤتمر عام للأدباء في حرم ندوة العلماء بالهند ، وقرر تأسيس "رابطة الأدب الإسلامي العالمية" ، وانتخب سماحة الشيخ الندوي رئيساً لها عام ١٩٨١م ، وقد أصبحت الآن أغزر رافد وأكبر منهل عذب طاهر للأدب في العالم .

ثم توجه فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي حفظه الله تعالى ، الرئيس العام لندوة العلماء بإشارة من سماحة الشيخ رحمه الله تعالى إلى إعداد مجموعة أدبية أخرى (منثورات) ، ثم ألف كتاب "جغرافية العرب" ، وكان قد جاء الكتاب في أوانه ، فلا يمكن أن يبقى دارس اللغة العربية في غنى عن مثل هذا الكتاب في دراسته الأدبية والتذوق فيها .

وكان قد بدأ سماحة الشيخ رحمه الله تعالى بإعداد منهج دراسي للأطفال ، واعتنى بأدب الأطفال خاصة ، وكان الأمر قد شغل باله لأنه كان من أعسر الأعمال وأصعبها وأهمها في نفس الوقت ، فأخذ يعد هذه السلسلة : "قصص النبيين للأطفال" في ثلاثة أجزاء ، ثم ألف الجزء الرابع بعد فترة من الزمن ، وأتم السلسلة لهذه القصص بكتابة عن سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم عام ذي القعدة ١٣٩٧هـ ، أكتوبر ١٩٧٧م ، وكان قد أكمل سلسلة "القراءة الراشدة" ثلاثة أجزاء بعام ١٩٤٤م ، وقال عن هذه المجموعة للأطفال :

"و قد شعرت بعد بدئي بهذا العمل ، بأن الله تعالى ألانه ويسره لي ،

(c) www.nidaulhind.com

١- أن تكون ثروة الألفاظ فيه أقل قليل ، ولكنها تنقش في ذهن الطالب بكثرة التكرار والإعادة .

٢- أن يكون الكتاب في لغة القرآن ، وتوضع الآيات الكريمة في محالها كالفص في الخاتم .

٣- أن يشتمل على تعليم العقائد الأساسية (التوحيد ، والرسالة ، والمعاد) وتلقينها للطالب بطريقة عفوية .

٤- أن تبسط القصص وتزود الأطفال بما يكره إليهم الكفر والشرك والمعاصي ، وتحبب إليهم الإيمان والعقيدة ، وترسخ فيهم الاعتقاد بعظمة الأنبياء وجلالة مكانهم ، وكل ذلك بطريق لا يشعر الطالب بثقله وأنه يلقي عليه ، بل يتلقاه ضمناً وعفواً وينسجم معه" . [في مسيرة الحياة : ج/١ . ص/١٤٥]

لقيت هذه المجموعة القصصية حظوة وقبولاً لدى المعنيين بأدب الأطفال وتعليمهم وتربيتهم وفي الطليعة كان الأديب الألمعي الكبير الأستاذ سيد قطب الشهيد رحمه الله تعالى ، الذي كان قد أعد بمساهمة بعض زملائه قصصاً للأطفال ، فقد مارس العملية بنفسه ، فيقول في تقديمه لهذه المجموعة :

"لقد قرأت الكثير من كتب الأطفال - بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام - ، وشاركت في تأليف مجموعة "القصص الديني للأطفال" في مصر ، مأخوذاً كذلك من القرآن الكريم ، ولكنني أشهد في غير مجاملة أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصص التي بين يدي ، جاء أكمل من هذا كله ، وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها ، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة ، ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر ، حين تستقر في قلوب الصغار والكبار .

(c) www.nidaulhind.com

جزى الله السيد أبا الحسن خيراً ، وزاده توفيقاً ، وهدى به الأجيال الناشئة التي تحيط بها العواصف والأعاصير ، وتنشر في طريقها الأشواك ، وتدلهم من حولها الظلمات ، وتحتاج إلى الهدى والنور والرعاية ، والإخلاص في حياتها ورعايتها ، ومن الله التوفيق" .

وتقدمت معاهد ومدارس في المملكة العربية السعودية والبلدان العربية الأخرى ، فقررت هذه المجموعة القصصية في مناهجها الدراسية ، وكان الجزء الأخير "خاتم النبيين ﷺ" يدرس في شعبة تعليم اللغة العربية لغير الناطقين في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وقد صاغ سماحة الشيخ الندوي رحمه الله تعالى مجموعة أخرى من حكايات الصحابة ﷺ في لغة سهلة وأسلوب شيق باسم : "قصص من التاريخ الإسلامي" للأطفال ، مراعياً فيها عقلية الأطفال ، ومستواهم بحيث يستسيغونها بدون سآمة وملل ، والمجموعة كلها بالإجمال تتمثل في تهئية أجواء ملائمة للتذوق والتشويق ، والتقريب والتعود على القراءة والتعلم بجنب رفع المعنوية والخلق النبيل والعقيدة القوية ، وإن طريقة التكرار والإعادة وضرب الأمثلة أجدى نفعاً في مثل هذه السن المبكرة من الأسئلة المتراكمة والتمارين المكدسة ، والتدريبات المثقلة بحيث يقع الطفل بمثل هذه الأعمال المنزلية في إرهاق شديد ، وتعقيدات يطير بها عقله وفكره ، فقد لاحظنا في قراءة هذه القصص بعبارات متكررة معادة تتخللها آيات قرآنية أوفر فائدة وأجدى نفعاً ، وصارت كالمسك إذا كررته يتضوّع .

واستمرت محاولات الشيخ الندوي رحمه الله تعالى المشكورة في تطوير المناهج ، فألف تحت رعايته فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي كتاباً في الأدب والنقد "الأدب العربي بين عرض ونقد" ، وكان الكتاب مهما جداً في إنشاء ملكة التذوق للأدب في الطلاب ، وأكمل بتأليف الجزء الثالث لكتاب : "معلم الإنشاء" الذي بدأ بتأليف جزء منه فضيلة

(c) www.nidaulhind.com

الشيخ عبد الماجد الندوي رحمه الله تعالى .

وكان يدرس في دار العلوم لندوة العلماء في تاريخ الأدب العربي كتاب الأستاذ أحمد حسن الزيات ، لا يفي بحاجة ولا يلائم الفكر السليم القويم لتاريخ الأدب ، فقام فضيلة الأستاذ محمد واضح رشيد الندوي بتأليف تاريخ الأدب العربي بدراسة واسعة عميقة للعصر الجاهلي ، واستفاد من الكشوف الحديثة والتحقيقات الجديدة ، والدراسة النقدية الواعية للعصر الجاهلي ، فظهر الكتاب جيداً نافعاً يستوعب الحقائق التاريخية والدراسات القويمة ، وقد شاركه في إعداد الجزء الثاني فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ، وهو كذلك على ذلك المستوى الجيد الحسن ، وقد دعي سماحة الشيخ الندوي رحمه الله تعالى إلى جامعة عليكره الإسلامية ، وأعد منهج مستوى الليسانس (بكالوريس) والماجستير في الجامعة ، وألف كتاباً باسم "إسلاميات" لا يزال يدرس فيها .

وكان لفضيلة الأستاذ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي ، عميد دار العلوم لندوة العلماء مساهمة عظيمة ضخمة في إعداد المنهج التعليمي ، والمقرر الدراسي بحيث أدى إلى عمل دراسي حيوي كبير ساعد في رفع مستوى الدراسة ، وإنشاء التذوق العربي السليم .

إنها نظرة إجمالية سريعة على ما قدم سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله تعالى من خدمات ومساهمات في تطوير اللغة العربية وآدابها في الهند ، وكانت لها صدى في الأوساط الأدبية واللغوية بمدارس الهند وجامعاتها وبخارج الهند أيضاً ، فجزاه الله عنا نحن طلاب اللغة العربية وآدابها خيراً ورضي عنه وأرضاه ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

☆☆☆